# الفصل الرابع

## الصلة التكاملية
## بين الوحدة التاريخية والموضوعية

عَرَف تاريخ التفسير أنواعاً كثيرة واتجاهات عديدة من التفاسير، وكان من أولها تفسير القرآن بالقرآن من كلام الله تبارك وتعالى، ثم تفسير القرآن بالسنة العملية والبيان عن النبي عليه الصلاة والسلام[1]، ثم تفسير القرآن بالاجتهاد عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في القرون الهجرية الأولى مما عرف بالمأثور أو المنقول، ثم بدأ عهد تدوين التفاسير المنقولة والمأثورة مقرونة بالاجتهادات التأويلية عن العلماء، بما يتناسب مع معارف كل عصر وعلومه.

وكان تفسير الإمام ابن جرير الطبري (310هـ)، «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» من أوائل التفاسير الموسوعية التي اشتملت على أنواع التفسير بالمأثور والمعقول وغيرها، وتواصل ظهور تفاسير تأخذ بالمناهج التجزيئية والتحليلية واللغوية والفقهية والعقدية والفلسفية والسياسية والموضوعية والتاريخية، بل وظهر التفسير العلمي الذي يفسّر الظواهر الكونية والإنسانية ومعارف العصر الذي يعرفه المفسّر من علوم طبيعية ومعارفَ دنيوية وخبرات بشرية بما ورد في القرآن الكريم من آيات عن الإنسان والكون، أو مما عُرف من آيات الأنفس والآفاق[2].

---

(1) من الأمثلة على ذلك انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، 6/ 20. وانظر: مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، نشرها قصي محب الدين الخطيب، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1397، ص 5.

(2) انظر: نشأة التفسير ومناهجه في ضوء المذاهب الإسلامية، الدكتور محمود بسيوني فوده، مطبعة الأمانة، مصر، الطبعة الأولى، 1406هـ-19986م. وكتاب: الفكر الديني في مواجهة العصر، دراسة تحليلية لاتجاهات التفسير في العصر الحديث، الدكتور عفت محمد الشرقاوي، دار العودة، بيروت.

وهذا الكم من التفاسير الكثيرة يبين تفاعل المفسّرين مع ثقافات عصورهم، وحاجة كل عصر لنوع من التفسير أو التفاسير التي تميّزه عن ثقافات عصر آخر، وهو تفاعل محمود مع معارف العصر وثقافته، ومع حاجة الناس والمسلمين إلى معالجة قضاياهم، باجتهاد منهجيّ وتفسير بياني في فهم القرآن وتدبّر آياته، وما توقّف ذلك إلا في فترات الضعف السياسي والعلمي في تاريخ المسلمين، وبسبب ضعف حركة الاجتهاد في الأمة الإسلامية، ولكن وإثر الهزائم الكبيرة التي لحقت بالمسلمين منذ الحرب العالمية الأولى، توجّهت همة الحركة العلمية بكل اتجاهاتها العلمية واللغوية والدينية نحو الأبحاث الجديدة واكتشاف المناهج التي تساعد المسلمين على فهم القرآن الكريم، كتابَ هداية ورشاد وخلاص.

لقد كان من أبرز اتجاهات حركة الاجتهاد الإسلامي الحديث حركةُ التفسير وحركة المناهج العلمية التفسيرية الجديدة[1]، وكان الاهتمام يزداد بالتركيز على أنواع معينة من التفسير، ومنها التفسير العلمي والتفسير التاريخي والتفسير الموضوعي، أو تفاسير الوحدة الموضوعية لإحدى سور القرآن الكريم، وقد احتاجت هذه التفاسير الجديدة إلى التفكير بالآليات الجديدة التي يتّبعها المفسر حتى يخرج بتفسير علمي يناسب عصره، أي أن الدواعي توجّهت نحو التفكير المنهجي في البحث، وبدايةً نقول إنه لا يمكن الفصل بين أنواع التفسير ومناهجها فصلاً تاماً، بل يُفضّل ألاّ يكون ذلك مطلباً علمياً، لأن كل نوع منها له فوائده وإيجابياته التي لا بد أن يستفاد منها، وينظر إليها للمشاركة في الوصول إلى التفسير الأفضل للقرآن الكريم، ونحاول في هذا الفصل بيان الصلة التكاملية بين التفسير الموضوعي والتفسير التاريخي، وبين الوحدة الموضوعية والوحدة التاريخية في تفسير سور القرآن الكريم.

تعددت الآراء في تعريف التفسير الموضوعي وبيان أهميته، وقد كان من أوائل هذه الجهود التي بيّنت أهمية التفسير الموضوعي دراسةٌ قدّمها المفكر محمد باقر الصدر في «التفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي في القرآن الكريم»، فقد دعا الصدر في هذه

---

(1) انظر: الإنسان والقرآن وجهاً لوجه، (التفاسير القرآنية المعاصرة)، قراءة في المنهج، احميدة النيفر.

الدراسة إلى تنشيط التفسير الموضوعي والتركيز عليه، مقابل التفسير التجزيئي القديم وهو ما بيّنه بقوله: (إلا أن الذي يهمّنا بصورة خاصة ونحن على أبواب هذه الدراسة القرآنية أن نركز على إبراز اتجاهين رئيسيين لحركة التفسير في الفكر الإسلامي ونطلق على أحدهما اسم «الاتجاه التجزيئي في التفسير» وعلى الآخر اسم «الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير» ونعني بالاتجاه التجزيئي المنهج الذي يتناول المفسّر ضمن إطاره القرآن الكريم آية فآية وُفقاً لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف)[1].

بينما عُرف التفسير الموضوعي أو الدراسة الموضوعية بأنها: (هي التي تطرح موضوعاً من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية وتتجه إلى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده)[2]، وقد أخذ الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم ملاحظة على تعريف الصّدر ودراسته بأنه أسقط ما يتعلق بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية.

وجاء الدكتور عبد الجليل بتعريف جديد يقول فيه: (التفسير الموضوعي: هو المنهج الذي يتخذه المفسّر سبيلاً للكشف عن مراد الله من خلال الموضوعات التي يطرحها والقضايا التي يعالجها توضيحاً لهداية القرآن وتجليةً لوجوه إعجازه.

أو نقول: التفسير الموضوعي: هو العلم الذي يتخذ من الموضوعات الظاهرة أساساً في الكشف عن منهج القرآن وأسلوبه في معالجته لها، متخذاً من القواعد والشروط المرعية في التفسير سُلّماً للوصول إلى هدى الكتاب وجلال شأنه)[3].

ولم يسلم تعريف الدكتور عبد الجليل من المآخذ ومنها ما لاحظه الدكتور زياد الدغامين فقال: (إنه ذكر في التعريف الثاني الموضوعات الظاهرة، وهو أمر غير واضح، فهل هناك موضوعات باطنة أو غير مدركة، وهل تدخل هذه الموضوعات ضمن إطار التفسير الموضوعي ومجال بحثه؟ والملاحظة الثانية أن التعريفين لم يبيّنا

---

(1) المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، 1401هـ-19981م، ص 9.

(2) التفسير الموضوعي، الصدر، ص 17.

(3) التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان، د. عبد الجليل عبد الرحيم، ص 34.

إذا ما كانت هذه الموضوعات تتجلى من خلال القرآن كله أو خلال سورة واحدة؟)[1].

وقد أورد العلماء كثيراً من هذه التعريفات[2]، لسنا في معرض بحثها أو ترجيح أحد منها أو اختيار تعريف جديد، وإن ما نلاحظه عليها أنها أغفلت دور منهج نزول القرآن مفرّقاً، وهو ما لا يجوز تجاهله في التفسير وبالأخص في التفسير الموضوعي، إذ إن من أهم ما يعنى التفسير الموضوعي به هو موضوعات القرآن كله أو موضوعات السورة الواحدة، وهذا لا يتم تحقيقه إذا تجاهل المفسّر تاريخ النزول، وليس فقط إنْ كانت السورة مكية أو مدنية، فلا شيء أقدر من علم تاريخ النزول وعلم ترتيب نزول السور في الكشف عن روح هذه الموضوعات، والكل مجمع على أن من حكم نزول القرآن مفرقاً التدّرج الفكري والتشريعي في معالجة قضايا الإنسان والمجتمع الإنساني والمجتمع المسلم المؤمن.

وكذلك اهتم العلماء بتعريف الوحدة الموضوعية في تفسير سور القرآن الكريم فقد عرّفها الدكتور عبد الجليل: (هو التفسير الذي يتوجّه فيه المفسّر إلى الكشف عن الموضوع الذي تعالجه السورة في ضوء معطيات آياتها المحكمة النّسْج والارتباط والأسلوب المتميز وخصائصها المعجزة بلوغاً إلى مقاصدها النهائية)[3].

والملاحظ على هذه التعاريف وغيرها أنها لم تجعل النظرة التاريخية أو الوحدة التاريخية أساساً في البحث عن الوحدة الموضوعية في السّور القرآنية، وإذا جاز تغافلُ دور علم تاريخ النزول في التفسير الموضوعي، فهو مما لا يجوز تجاهله في تفسير الوحدة الموضوعية للسور، لأن من الأسس المهمّة لوظيفة نزول السورة هو معالجتها الفترةَ الزمنيةَ التي نزلت فيها، وما كان يواجه الدعوة الإسلامية من أحداث، وما

---

(1) منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، الدكتور زياد خليل محمد الدغامين، دار البشير، الأردن، الطبعة الأولى 1416هـ- 1995م، ص 13.

(2) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، الدكتور مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1410هـ- 1989م، ص 15. وكتاب: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، 1416هـ- 1996م.

(3) التفسير الموضوعي للقرآن، د0 عبد الجليل عبد الرحيم، ص 34.

يحاك ضدها من مؤامرات، وما تقرّره هذه السورة في هذه المدة الزمنية من أحكام تعالج ما سبق وتبني عليه وتخطط للمستقبل وتمهّد له، حتى تقود كل المراحل بفلاح وفوز وانتصار.

لقد ذكر بعض العلماء في منهجية البحث في الوحدة الموضوعية في القرآن ضرورة النظر في المكي والمدني، وملاحظة البُعد التاريخي والبيئي[1]، ولكنا لا نرى أنهما يكفيان في بيان النظرة التاريخية المطلوبة في فهم تدرّج القرآن الكريم في معالجته لقضايا الإنسانية كافة، والمكيُّ والمدنيُّ من الأمور التي نبّه العلماء إلى أهميتها في كتب علوم القرآن قديماً وحديثاً، ولكنها لم تؤسّس أصولاً علمية لمنهجية تاريخية في فهم معاني القرآن الكريم، ولم يظهر على أساسها تفاسير تاريخية إلا حديثاً، وما ظهر منها اتبع الترتيب التاريخي دون منهجية واضحة، بل كان أقرب إلى منهج التفسير التجزيئي منه إلى التفسير الموضوعي.

إن ظهور التفسير الموضوعي المتخصّص في قضايا القرآن الكريم ومحاوره الرئيسية، يتطلّب التركيز على علم ترتيب نزول آيات القرآن وسوره، وجعله الدّعامة الأولى في التفسير الموضوعي، لأنه يجعل القرآن كله في رسالة واحدة متتابعة الأسطر والصفحات، ليس في ترتيب صفحاته رقمياً، وإنما في ترتيب معانيه وقضاياه والتحديات التي واجهته، وطريقة علاجه لها، أي أنه يصنع عقلية علمية قادرة على القياس الكلي وليس الجزئي فقط.

ولا تعني الدعوة إلى أحَد أنواع تفسير القرآن إنكار إيجابيات أنواع أخرى، أو التركيز على ذكر سلبيات الأنواع الأخرى، فلكل نوع من أنواع التفسير واتجاهاته إيجابياته التي لا تكفي وحدها أن تكون المنهج الوحيد لكل عصر وزمان، أي أن مناهج التفسير بطبيعتها الاجتهادية هي مناهج متطورة، وتنتفع من معارف كل عصر وعلومه، وبما يكشف عن قدرة المسلمين في ذلك العصر على جعل القرآن كتاب هداية وصراطاً مستقيماً فعلاً وفي الواقع الحياتي واليومي.

---

(1) انظر: منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د 0 الدغامين، ص 40.

وما من اتجاه جديد يظهر في مناهج التفسير إلا ويظنُّ صاحبه أو مصنّفه أنه معنيٌّ بمهاجمة الأنواع الأخرى السابقة، أو أنه مطالب أن يبين ضعف الاتجاهات الأخرى حتى يبرر تقدُّمَ اتجاهه الجديد، وهذه نظرة سلبية؛ إن وجدت في كل العلوم، فلا يجوز أن تظهر في علوم التفسير ولا في علوم القرآن ولا بين المفسّرين ولا المجتهدين المسلمين، فلا يوجد نوع جديد يُدعى إليه إلا وله جذور قديمة وأصيلة في الثقافة الإسلامية، وميّزته عن غيرها في الماضي أنه لم يُنمّ كثيراً كغيره، وذلك لأن البيئة التي نبتت فيها جذور هذا العلم أو المنهج لم يتوفرْ لها شروط ولا دواعي الرعاية المطلوبة، وكانت الشروط والدواعي متوفّرة لعلوم ومناهج أخرى، وقد تأتي لاحقاً بيئات علمية أخرى وعصور لاحقة تكتشف حاجتها إلى هذه المناهج والاتجاهات، فظهور الحاجة إلى أي نوع من أنواع التفسير أكثر من غيره أمر طبيعي، ولا يعني ذلك ابتداع أنواع أو اتجاهات جديدة، ولا يوجب محاربة ومعاداة أنواع قديمة.

وإذا كان لأيّ علم ومنهج جديد كثير من الإيجابيات والدواعي التي تقدّمه على غيره، فإنه كذلك لا يخلو من بعض السلبيات، ولا يستطيع أي منهج أن يبقى هو المنهج الأفضل في تفسير القرآن الكريم إطلاقاً، والذين تشجعوا كثيراً للتفسير الموضوعي لم يبحثوا في سلبيات هذا المنهج، ومنها أنهم دعوا في منهجية البحث إلى: اختيار عنوان للموضوع القرآني بعد تحديد معالم حدوده ومعرفة أبعاده في الآيات القرآنية، وجمع الآيات القرآنية التي تبحث في الموضوع، أو تشير إلى جانب من جوانبه، وترتيب هذه الآيات حسب زمن النزول، ودراسة تفسير هذه الآيات دراسة وافية، واستنباط العناصر الأساسية للموضوع، وغيرها[1].

هذه خطوات مفيدة وإيجابية ولكنها قد تؤول في النهاية إلى جعل التفسير الموضوعي مثل التفسير التجزيئي في تناول موضوعات القرآن الكريم العديدة، إذ إن مما أُخذ على التفسير التجزيئي أنه يتناول تفسير الكلمة أو الآية معزولة عن سياقها ونظمها أو حتى عن سورتها التي نزلت فيها، والتفسير الموضوعي يدرس الموضوع من القرآن بنظرة جزئية للموضوع في معزِل عن موضوعات القرآن الأخرى، والتي تجتمع

(1) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، الدكتور مصطفى مسلم، ص 37.

مع هذه القضية الموضوعية أو غيرها في بيان كيفية البناء القرآني كله في هداية الناس وبناء المجتمع المسلم المؤمن، أي أن الخشية هي أن يؤول التفسير الموضوعي إلى تفسير تجزيئي، ولكنه هذه المرة للموضوعات القرآنية معزولةً عن نظمها القرآني العام، مثل تناول موضوع اجتماعي بمعزلٍ عن جوانبه العقدية والتشريعية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، والتي تشترك مع هذا الموضوع في النظرة القرآنية الكلية، وهذا بالتالي يؤدي إلى نظرة جزئية في حل الإسلام للمشكلات والموضوعات والتحديات ما لم تنتظم في بناء فكري كامل، ولعل محاولات بيان حل القرآن لبعض المشكلات العصرية مثل الفقر والبطالة، في معزل عن الحل الإسلامي العام هو ما يظهر هذه الحلول ضعيفة أو عاجزة.

لذا فإن الجهود التفسيرية الجديدة مدعوةً إلى احترام الجهود الأخرى، وبالأخص القديمة منها، على أساس شرعية الاختلاف بين المسلمين[1]، علماً بأنه من الممكن أن تتضافر الجهود في تجديد علوم القرآن الكريم، وتتكامل الاتجاهات بين مناهج التفسير الجديدة، وبالأخصّ بين التفسير الموضوعي والتفسير التاريخي، وبين الوحدة الموضوعية والوحدة التاريخية للسور القرآنية، وسوف نقترح بعض نقاط في المنهج المشترك بين الوحدة الموضوعية والوحدة التاريخية لتفسير السور القرآنية:

**أولاً:** التعريف الأوليّ بالسورة، إن كانت مكية أو مدنية، أو إن كانت من أوائل العصر المكي أو أواسطه أو أواخره، وعدد آياتها، وأسمائها إن وُجد لها أكثر من اسم، وصلة هذا الاسم بموضوعها وتاريخها وترتيبها.

**ثانياً:** معرفة ترتيبها الراجح في النزول التاريخي، سواء باجتهاد من المفسّر نفسه أو باتباع ترتيب نزولٍ لعالم آخر يرجّحه على غيره، بغضّ النظر إن كان هذا الترتيب تراثياً أو معاصراً، وبيان سبب ترجيحه له من خلال دراسة تفصيلية وموثّقة علمياً.

---

(1) للمزيد انظر: شرعية الاختلاف بين المسلمين، إسلام واحد وتعددية فقهية وعقدية وسياسية في الاجتهاد والشورى والدولة، عمران سميح نزال، دار قتيبة، دمشق، دار القراء، الأردن، الطبعة الأولى، 1425هـ - 2004م.

**ثالثاً:** النظر في الوحدة الموضوعية للسورة بصورة إجمالية، وتفحّص إمكانية تطابق الوحدة الموضوعية مع تاريخ نزولها، وذلك بالنظر إلى تقسيمات السورة الداخلية إن كانت من السّور الطويلة ولم يثبت نزولها دفعة واحدة.

**رابعاً:** تدبّر قضايا الوحدة الموضوعية للسورة مع الوحدة التاريخية مع سور قرآنية أخرى، وبالأخصّ السابقة عليها والتالية لها في ترتيب نزولها التاريخي، ومكانتها من الترتيب الكلي.

**خامساً:** اتباع منهجيّة علمية هندسية ترصد كلمات القرآن الكريم منذ ظهورها واستعمالها في القرآن الكريم أوّل مرة، ثم تتبع تطوُّر استعمال الكلمة وتطوّر مدلولها، حتى مراحلها الأخيرة وما استقرت عليه الكلمة قرآنياً، ومكانتها مع غيرها من الكلمات القرآنية في صنع بناء هندسي تخصُّصي في مجالاته العديدة، وأهمها ما يخص الإنسان والمجتمع المسلم وغير المسلم، مثل معجم الكلمات المعرفية الإنسانية، ومعجم الكلمات التعبُّدية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو غيرها.

**سادساً:** التركيز على المجالات الدنيوية والحيوية القادرة على مواجهة تحدِّيات العصر المعاش، حتى يكون التفسير من أجل العبادة العلمية والعملية في الواقع الحياتي واليومي.